بحث فى

رباعيات

بابا طاهر العريان

دراسة وترجمة :

دكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل



بحث فى

رباعيات
بابا طاهر العريان

دراسة وترجمة :

دكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل

المقدمـة :

يقول إدوارد براون فى كتابه "تـاريخ الأدب فـى إيـران" الجزء الثانى « المعروف لنا عن بابا طاهر قليـل جـداً ، وقـد اختلف كتاب الفرس اختلافاً كبيراً فى تحديد زمنه . بحيث جعلـه بعضهم من الرجال الذين عاشوا فى بداية القرن الحادى عـشر الميلادى وأوائل الخامس الهجرى ، وجعله بعضهم الآخـر مـن رجال النصف الثانى من القرن الثالث عشر المـيلادى وأواخـر السابع الهجرى».

وهكذا تظل سيرة هذا الشاعر غير واضحة المعالم ، لعـل الأيام تكشف عن وثائق توضح ماخفى من هذه السيرة ، ومازال هذا الغموض يكتنف ماخلفه لنا من أشعار ، وهل كـل ماوصـل إلينا من نظمه أم أنه أو على الأقل بعضه منحول.

وهذا ما سنحاول الإجابة عليه ما أمكننا ، حيث سـنعرض لسيرة الشاعر محاولين تحديد زمن وجوده ، وكذلك سـنعرض لرباعياته ، ونقدم ترجمة عربية لهذه الرباعيات ونقـارن بـين معانيها وسماتها الفنية وبين رباعيات مشاهير الشعراء الفـرس أمثال عمر الخيام وأبى سعيد بن أبى الخير وغيرهما .

ونرجو أن يكون هذا البحث مجرد محاولة لاستجلاء بعض الغموض عن هذا الشاعر وعن رباعياته !

تمهيد
« فــن الرباعــى »

الرباعية أو الرباعى وحدة قائمة بذاتها يصوغها الــشاعر فى مناسبة من المناسبات ويضمنها خاطراً من خواطره ويلخص فيها أحاسيسه ومشاعره.

والرباعية لها صفتان أساسيتان تميزانهــا كإنتــاج فنــى لشعراء الفارسية **فبالنسبة للشكل الشعرى** : تتألف الرباعية من أربع وحدات من الشعر ، الأولى والثانية والرابعة تكون متحــدة فى القافية ، أما الثالثة فيجوز أن تكون مقفاة ويجوز ألا تكــون كذلك. والفرس يسمون هذا النمط الــشعرى تــسميات أخــرى فارسية هى " ترانه "، چهارگانى ، و دوبيتى " أى البيتــان مــن الشعر ، لأن هذا الضرب من النظم مكون من حيث الشكل مــن أربع وحدات تشبه البيتين من الشعر، ولهذا أجــازوا أن تكــون الوحدة الثالثة مقفاة أو غير مقفاة.

وبالنسبة للوزن : تختلف أوزان الرباعية عن جميع الأوزان التى اخترعها العرب ، ذلك أن أوزان الرباعى تعتبر على وجــه التحديد من أصل فارسى . وقد تفنن الفرس فى أوزان الربــاعى تفنناً بارعاً جعلهم يصوغونه على أربعة وعشرين وزنــاً مــن مستخرجات بحر الهزج (١)

---

(١) ارجع إلى إسعاد عبد الهادى قنديل : " فنون الشعر الفارسى"، ص ١٦٧.

ويذهب البعض إلى أن المستعربة هم الذين أطلقوا على هذا الضرب من النظم اسم رباعى ، لأن الرباعية فى نظر هؤلاء عبارة عن أربعة أبيات لا أربعة أشطر ، ذلك أن كل وحدة من الوحدات الأربع التى تتكون منها الرباعية تشتمل على أربع تفعيلات – مفاعيلن – ولما كان الرباعى يبنى على أوزان مستخرجة من بحر الهزج ، وبحر الهزج ، فى العروض العربى لا يجئ مثمناً ، فقد عدوا كل وحدة بيتاً لا شطراً ، وأسموا هذا الضرب بالرباعى.

أما رباعيات بابا طاهر فقد بنيت على وزن خاص من الهزج يعرف بوزن الهزج المسدس المحذوف ، وهذا الوزن يتكون من تكرار " مفاعيلن " ثلاث مرات فى الشطر الواحد بمعنى أن البيت يتكون من ست تفعيلات ، وتقتضب التفعيلة الثالثة والسادسة إلى مفاعل أو فعول أو مفعول ، ومن هنا أطلقوا على رباعياته اسم (دوبيتى ها) أى : الدوبيتات .

وإذا أردنا أن نعرف بداية هذا الضرب من النظم ورجعنا إلى ما كتبه شمس قيس الرازى ، نراه يروى قصة طريفة عن كيفية اختراع الرباعى فيقول « إن أحد الشعراء القدماء – ويظن أنه الرودكى – كان يسير فى أحد أيام الأعياد فى حديقة للنزهة فى مدينة غزنة ، فتوقف مع جماعة من أصحابه يرقبون الأطفال الذين كانوا يلعبون بالجوز ، واسترعى انتباهه على الأخص صبى صبوح قذف بجوزته فدخلت الحفرة التى جعلوها هدفاً ولكنها لم تستقر فيها طويلاً وخرجت منها ، ويشعر الغلام باليأس ، ولكن الجوزة ما لبثت أن عادت تتدحرج إلى الحفرة

واستقرت فيها ، فصاح الغلام فى نشوة من الفرح قائلا " غلتان غلتان همى رود تا بن كو "أى" تذهب متدحرجة، متدحرجة إلى قاع الحفرة » ، وتعرف الشاعر مع هذه الصيحة على كيفية اختراع نوع جديد من الوزن بأن ظل يكرر قول الصبى أربع مرات مع الوزن المناسب وبذلك اخترع الرباعية.[1]

وقد روى دولتشاه ، نفس هذه القصة مع استثناء واحد وهو أنه لم يذكر أن الرودكى كان أول من اخترع الرباعية ، وأن الصبى الذى اخترعها كان ابن يعقوب بن الليث الصفار مؤسس الأسرة الصفارية (٢٤٥:٢٩٠ هـ)[2]

وأيا كانت الروايات التى ذكرت فى هذا الصدد فليس هناك شك فى أن هذا النمط الجديد من الشعر سرعان ما انتشر وصادف هوى فى نفوس الناس ، فقد كان قصيرا بدرجة مناسبة تجعل من السهل تذكره والترنم به ، كما كان يعتمد علي الإعراب عن الأفكار والمشاعر بأسلوب سهل مبسط يفهمه الجميع .

وقد صور لنا شمس قيس الرازى كيف استقبل الناس هذا النوع من الشعر فقال : إن الخواص والعوام شغفوا به ، وتعلق به المثقفون والجهلة، والأخيار والأشرار ، والذين لا يعرفون كيف يفرقون بين الشعر والنثر ، والذين ليست لهم دارية أو معرفة بالوزن والقافية ، ومن الذين تبلدت أحاسيسهم بحيث

---

(١) المعجم من معايير اشعار العجم" لشمس الدين محمد بن يحيى الرازى ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

(٢) تذكرة الشعراء ـ لدولتشاه . ص ٣٠ ـ ٣١ ، براون : ليدن ١٣١٨هـ/١٩٠٠م.

لايستطيعون التمييز بين أنغام الناي ونهيق الحمار ، فكان هؤلاء جميعا علي استعداد لأن يسلموا أرواحهم للرباعية.[1]

هذه الكلمات التي قالها شمس قيس علي ما فيها من مبالغة لطيفة تعطينا فكرة عن مكانة الرباعي في نفوس الفرس، ومدي تقبلهم لهذا النمط الشعري الجديد.

وقد ظل الرباعي منذ اختراعه ميدانا تجول فيه ألسنة شعراء الفرس وأقلامهم ويخوضه صغيرهم حتى إذا ما بلغنا العصر السلجوقي (٤٢٩ : ٥٥٢ هـ) نلاحظ أن هذا الضرب من النظم تطور تطورا كبيرا من حيث أغراضه ، إذ اتخذه جماعة من كبار الصوفية في هذا العصر وسيلة للتعبير عن خواطرهم العرفانية والصوفية والفلسفية .

ولعل من أشهر الشعراء الذين برزوا في هذا الضرب من النظم واعتمدت عليه شهرتهم دون غيره ، أربعة من الشعراء وهم حسب ترتيبهم الزمني :

أبو سعيد بن أبي الخير المتوفى عام ٤٤٠ هـ

بابا طاهر الهمداني المتوفى في منتصف القرن الخامس

الشيخ عبد الله الأنصاري المتوفى عام ٤٨١ هـ

عمر الخيام المتوفى عام ٥١٧ هـ

(١) * المعجم في معايير اشعار العجم ص ١١٢ وما بعدها .

وقد ذهب جماعة من المستـــشرقين مـــن أمثـــال " إيتـــه "ونيكولسون " "وبراون " إلي القول بأن أبا سعيد أول من ابتـــدع الشعر الصوفي وأول من روج الرباعيات (١) .

وإذا كنا نتفق مع هؤلاء في القول بأن أبا سعيد كان مـــن أوائل الشعراء الذين أمدوا الأدب الفارسي برباعيتهم " الصوفية، إلا أننا نتردد بعض الشيء في القول بأن أبا سعيد كـــان وحـــده أول من ابتكر الشعر الصوفي وأول من روج الرباعيات ، فمما لا شك فيه أن بابا طاهر كانت له جهود لا تنكر في هذا المجال .

---

(٢) انظر : Nicholson : Studies in Islamic Mysticism

الفصل الأول

التعريف بباب طاهر

حياة بابا طاهر غامضة كل الغموض ، ولا يعرف عنها إلا النذر اليسير من التفاصيل . وقد تضاربت الأقوال بشأنها تضاربا عجيبا . وما من شك في أن هذا الغموض الشديد الذي اكتنف حياته ، والشهرة العريضة التي نالتها رباعياته يجعلان منه شخصية جديرة بالدراسة في تاريخ الأدب الفارسي .

وإنه ليكفي لكي نصور الغموض الذي أحاط بحياة هذا الرجل أن نذكر ما قاله " إدوارد هرون الن " من أننا عندما نحاول أن نظفر بمعلومات عن حياة هذا الشاعر الذي لا نعرف عنه شيئا تقريبا ، نكون كمن يتحدث عن الطريقة التي صنع بها اليهود الطوب النيئ " في عهد قدماء المصريين[١].

وما قاله " وحيد دستكردي " ناشر ديوان بابا طاهر من أنه" ليس في أيدينا معلومات كافية عن حياة بابا طاهر ، وأن ما كتبه كتاب التذاكر عن ترجمة حياته إذا استبعدت منه الزينات الأدبية للكتابة لا يبقي منه إلا سطور قليلة [٢].

وقد بذلت محاولات كثيرة للكشف عن شخصية بابا طاهر ، وقام بهذه المحاولات عدد من المستشرقين في مقدمتهم : "كليمان أوبار " و " ادوارد هرون الن " و " ادوارد براون "

---

(١) Heron – Allen : The Lament of Baba Tahir, P.1.

(٢) " ديوان بابا طاهر " انظر مقدمة الناشر .

خرجوا من دراستهم ببعض الحقائق عن بابا طاهر ، وإن كانت محاولاتهم جميعا قد توقفت عند عائق واحد ، هو قلة أو بالأحرى ضآلة المصادر التي استقوا منها معلوماتهم .

وإذا تعرضنا أيضا للمصادر الفارسية التي تحدثت عن بابا طاهر لا نجد منها إلا عدداً قليلاً يتحدث عن بابا طاهر نفسه ، بينما نجد الكتب والمخطوطات الأخرى إما أن تذكر مقتطفات من رباعياته دون تعليق ، أو تتحدث عن الرباعيات نفسها دون أن تتحدث عن مؤلفها أو تتحدث في معظمها عن السلطان الذي عاش بابا طاهر في عصره وتخصص عبارات طويلة للثناء عليه.

عصره :

اختلفت المصادر في تحديد عصر بابا طاهر اختلافاً كبيراً حتى أن بعضها يجعله من رجال أواخر القرن الرابع الهجري أو بداية القرن الخامس ويجعله البعض الآخر من رجال القرن السادس أو أواخر القرن السابع الهجري .

وأقدم المصادر التي حدثتنا عن بابا طاهر هو كتاب " راحة الصدور " وقد قدمه إلينا هذا المصدر على أنه كان أحد ثلاثة من شيوخ الصوفية قابلهم طغول بك السلجوقي (٤٢٩ : ٤٤٥ هـ) عندما ذهب إلي مدينة همدان عام ٤٤٧ هـ ، وأن بابا طاهر أمد السلطان بنصيحة طبية وأهدى إليه رأس أبريق مكسور كان

يستعمله في الوضوء مدة ، وظل السلطان يحتفظ بهذه الهدية وكان إذا خرج لموقعه يلبسها في أصبعه (١) .

والمصدر الثاني الذي تحدث عن بابا طاهر هو " مجمع الفصحاء " وقد تحدث مؤلفه رضا قليخان عن بابا طاهر وهو يقدم لبعض رباعياته فذكر اسمه وأنه كان يلقب ببابا طاهر العريان الهمدانى ، ثم يقول بعد ذلك إن بعض المؤلفين يرون أن بابا طاهر كان معاصرا لسلاطين السلاجقة ولكن هذا الرأي خاطئ ، فقد كان واحدا من أقدم الشيوخ الذين عاشوا في ظل الديالمة ، ولمع اسمه حوالي عام ٤١٠ هـ وتوفي قبل الأنصاري والفردوسي ، أي أنه كان معاصراً لهما(٢).

علي أن رضا قلي خان يعود للحديث عن بابا طاهري في كتابة "رياض العارفين (٣) الذي ألفه بعد مجمع الفصحاء بحوالي عشر سنوات فيقول " إن بابا طاهر توفي عام ٤١٠ هـ وعلى هذا لا يمكن أن يكون معاصرا لعين القضاة الهمداني الذي مات عام ٥٢٥ أو ٥٢٦ هـ (٤) كما ذكر حاجي خليفة ، أو معاصرا لنصير الدين الطوسي الذي توفي عام ٦٧٢ هـ .

أما كتاب " آتشكده " فنجد به مقدمة لخمسة وعشرين رباعية من رباعيات بابا طاهر ذكرت تحت عنوان "عراق عجم"

---

(١) " راحة الصدور " الراوندى . ص ٩٨ – ٩٩ .

(٢) " مجمع الفصحاء " رضا قلى خان .

(٣) " رياض العارفين " : " رضا قلى خان ص ١٦٧" .

(٤) جاء فى دائرة المعارف الإسلامية أن الصوفى عين القضاة الهمدانى أعدم عام ٥٣٣هـ.

وهو يقول في هذه المقدمة " العريان الذي يسمي بابا طاهر هو رجل مجذوب ، وعارف مطلع على كل شيء ، وهو عاشق مفتون يبدو احتراق روحه من أشعاره وقد نظم رباعيات كثيرة باللهجة الراجية في وزن خاص ويتميز معظمها بخصائص معينة" (١) .

وقد جاء فى كتاب " تاريخ ادبيات ايران " وهو من الكتب الحديثة ما يلى :

" كان بابا طاهر العريان من همدان ، وقد كان اتجاهه الصوفى سببا فى أنه عاش معتكفا مغمورا ، ولم يبق من التفصيلات عن حياته سوى ما ورد فى كتب التصوف عن منزلته وطريقته فى الرياضة ومنهجه فى التصوف . ويقال إنه التقى فى حياته بطغول بك أول ملك سلجوقى عام ٤٤٧ هـ فى مدينة همدان . أما شهرة الشاعر فقد شغلت أواسط القرن الخامس الهجرى ، ويظهر من هذا أن مولده كان فى أواخر القرن الرابع الهجرى (٢).

ونحن إذا رجعنا إلى النبذة المروية عن بابا طاهر فى كتاب راحة الصدور نجد أنها تجعل وفاته بعد عام ٤٤٧ هـ ، وهذا وإن كان يتعارض مع التاريخ الذى حدده رضا قلى خان لوفاة بابا طاهر وهو عام ٤١٠ هـ إلا أنه لا يتناقض مع ما ذكره من أن بابا طاهر كان موجودا فى عهد الديالمة ، فمن المعروف أن

---

(١) آتشكده " للطف على بك آذرد لى .
(٢) " تاريخ ادبيات ايران " رضا زاده شفق ، ص ٧١ .

بنى بويه وأقاربهم آل كاكوية ظلوا يحكمون همدان حتى حملة إبراهيم بن ينال عام ٤٢٨ هـ.

وإذا وضعنا فى الاعتبار أن كتاب "راحة الصدور" يعتبر من أوثق وأدق المصادر فى تاريخ السلاجقة ، وأنه أيضا من أقدم المصادر وأقربها عهداً إلى عصر بابا طاهر ، أمكننا أن نستخلص من التاريخ الذى ذكره هذا المصدر للقاء بابا طاهر مع طغول بك أن بابا طاهر كان حيا حتى عام ٤٧٧ هـ ، وأمكننا أن نتصور أنه كان قد قارب الخمسين من عمره أو تجاوزها ، وبناء على هذا يمكن أن نرجح القول بأن بابا طاهر ولد فى أواخر القرن الرابع الهجرى.

وإذا عرفنا أيضا أن زيارة طغول بك لهمدان كانت حوإلى عام ٤٤٧ هـ أو ٤٥٠ هـ ، أمكننا أن نستنتج من ذلك أن وفاة بابا طاهر وقعت فى أوائل النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، وعلى هذا يمكن أن نعد بابا طاهر من رجال القرن الخامس الهجرى .

موطن بابا طاهر :

لعل الحديث عن ألقاب بابا طاهر يكشف لنا عن موطن الشاعر والأماكن التى ينتسب إليها .

وبابا طاهر يلقب أحيانا بـ "بابا طاهر اللورى" نسبة إلى بلاد اللور (لورستان).

وإذا تعرضنا للقب الأول " الهمدانى " نجد أن معظم المصادر تتفق على أن بابا طاهر عاش فى همدان وتوفى فيها ولا يزال قبره قائما بها . وقد جاء فى كتاب نزهة القلوب أن قبر بابا طاهر موجود على تل صغير فى الشمال الغربى من همدان فى حى " بن بازار".

وإذا رجعنا إلى اقوال الشاعر نجده فى رباعياته يشير إلى هذا اللقب ويلقب نفسه بالهمدانى . كما نجده أيضا يذكر فى الكثير من رباعياته اسم جبل الوند الذى يشرف على مدينة همدان .

وإذا تعرضنا للقب الثانى " اللورى " نجد أيضا أن بعض المصادر تلقب بابا طاهر بهذا اللقب حتى أن **Stangees** يسميه " طاهر اللورى الطاطى " ويذكر أن " طاطى " هذا هو اسم احدى قبائل اللور . ومما يوضح صلة الشاعر بلورستان ما نراه فى لغته من استعمال اللهجة اللورية حتى إن الكثيرين ذهبوا إلى أن رباعياته نظمت بهذه اللهجة .

ولا شك أنه من الغريب أن ينسب الشاعر إلى همدان ولورستان فى آن واحد وقد تساءلت دائرة المعارف الإسلامية عن السبب فى ذلك ولكنها أجابت فى النهاية بأن الصلات بين همدان ولورستان كانت وثيقة جدا فى القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) ، وأن الشاعر ربما عاش مقسماً حياته بين البلدين .

وهناك لقب آخر يلقب به بابا طاهر وهو لقب " عريـــان " وقد تعرض " هرون الن " لهذا اللقب وعلله بأن بابا طاهر كـــان يتجول عارياً فى شوارع همدان .

شخصية بابا طاهر :

قدمت إلينا المصادر جميعها " بابا طاهر " على أنـــه كـــان شيخاً تقياً يوصف بالولاية ، ورجلا من رجال الصوفية أصـــحاب المقامات والكرامات ، ودرويشاً مجذوباً وعاشقاً مجنوناً بالمعنى الصوفى لكلمة الجنون . ولولا رباعيات بابا طاهر التى اشتهرت وبقيت على مر الأيام لما اهتم الناس ببابا طاهر كشاعر وربمـــا اقتصر ذكره بين الأولياء والعرفاء وأصحاب الكرامات .

وهناك كثير من الأساطير التى تروى عن كرامـــات بابـــا طاهر شأنه فى ذلك شأن غيره من شعراء الصوفية منها أن بابا طاهر كان رجلاً أمياً حطاباً – وكان يتوجه خـــلال النهـــار إلـــى احدى المدارس فى همدان ويستمع إلى الطلبـــة وهـــم يقـــرأون دروسهم ، وكان هؤلاء يسخرون منه كثيراً وفى يوم من الأيـــام طلب بابا طاهر من زملائه أن يدلوه على طريق العلم فأجـــابوه متندرين بأن الإنسان لا يحصل على العلم إلا إذا امضى ليلة من ليالى الشتاء فى صهريج مملوء بماء شديد البرودة . ونفذ بابـــا طاهر قولهم ، فلما أصبح الصباح وجد نفسه مستنيراً بـــالعلم . وعندما توجه إلى المدرسة فى اليوم التالى أخـــذ يخـــوض فـــى مناقشات فلسفية مع التلاميذ الذين وقفوا عاجزين أمامه ، ولمـــا سألوه عن السبب فى هذا التغير الفجائى روى لهم القصة وقال:

« أمسيت كردياً وأصبحت عربياً » وقد ذكرت هذه القصة فى دائرة المعارف الإسلامية كما ذكرها هرون الن فى كتابه " اشجان بابا طاهر". ويقول إنها منتشرة جدا فى إيران وأنه سمعها فى "بوشهر" كما سمعها " جكوفسكى " أيضا فى إيران .

وهناك أساطير أخرى لها مسحة من التقى تروى عن بابا طاهر منها ، أنه كان يتميز بحرارة غير عادية تشع من جسده بحيث لم يكن أحد يستطيع أن يجلس إلى جواره . وأنه كان يذيب البرد فوق جبل الوند بقوة حرارته الروحية . ومنها أيضا أنه حل بأصبع قدميه سؤالا فى الفلك وجه إليه ، وأنه أطعم جيش " طغول " كله بصاع من الأرز .

وتذكر دائرة المعارف الإسلامية أنه جاء فى أحد الكتب الدينية ويسمى " سر آنجام " أن بابا طاهر يحتل مكانة كبيرة عند طائفة أهل الحق فهم يعتقدون – فى نظريتهم عن تجسد الإله – أن الإله تجسد فى سبع صور متعاقبة فظهر قبل الأزل فى صورة " خاوند كار" وفى الثانية فى صورة "على " وفى الثالثة فى صورة " بابا كوشين " وفى الرابعة فى صورة "السلطان أسحق". ويقولون إن الإله ظهر فى كل مرة يحف به أربعة من الملائكة لكل منهم وظيفته الخاصة ، ويعتقد أهل الحق أن بابا طاهر كان واحدا من الملائكة الذين صحبوا بابا كوشين .

ويقول Globncao فى كتابه : Trais aus en edsie «إن أتباع طائفة أهل الحق يمجدون كل التمجيد مشاهير الصوفية ويسمون الأماكن بأسمائهم إعجاباً بهم وخاصة بابا طاهر الذى يقدرون شعره المكتوب فى لهجة خاصة تقديراً كبيراً» .

ومن المسلم به أن بابا طاهر كان من كبار المتصوفة فى عهده ، وقد تحدثت بعض كتب التصوف عنه وبينت منزلته وطريقته فى الرياضة ومنهجه فى التصوف .

آثار بابا طاهر:

تعتمد شهرة بابا طاهر على رباعياته وآثاره الصوفية . وقد نسبت إليه مؤلفات شعرية باللغة العربية والفارسية . ومما ينسب إلى بابا طاهر إنه ألف ٢٢ رسالة فى علم ما وراء الطبيعة . وقد أشارت إليها دائرة المعارف الإسلامية وذكرت أن الفضل يرجع إلى " اتيه " و" بلوشيه" فى معرفة وجود تفاسير وشروح لأقوال بابا طاهر .

ومن الآثار العربية التى تنسب إلى بابا طاهر رسالته المسماة "الكلمات القصار" وهى عبارة عن مجموعة كلمات قصيرة تشرح عقائد التصوف وتتحدث عن العلم والمعرفة والإلهام والفراسة والدنيا والعقبى والعقل والنفس والاعتكاف والسماح والذكر والإخلاص ... ويقول هرون الن إن الكنايات التى فى هذه الرسالة تعتبر نموذجاً رائعاً للأقوال الصوفية .

على أن عماد شهرة بابا طاهر فى الواقع هو رباعياته ، تلك الرباعيات التى احتلت مكانة مرموقة فى قلوب الفرس منذ القدم والتى ما زالت رغم مرور أكثر من عشرة قرون على وفاة قائلها ، تحتفظ بهذه المكانة وتغنى وتروى فى جميع أنحاء إيران إلى يومنا هذا .

ومما جعل رباعيات بابا طاهر قريبة إلى قلوب الفرس أن الشاعر يعبر فيها عن أحاسيسه ومشاعره فى صورة بسيطة سهلة لا أثر للتكلف أو التصنع فيها ، فهو يسترسل فى رباعياته على سجيته ولا ينطق إلا بما يعتلج فى قلبه المفتون المفعم بالعشق والمحبة ولهذا جاءت رباعياته ترجماناً صادقاً لقلبه المرهف وإحساسه الدقيق.

يقول وحيد دستگردى إن رباعيات بابا طاهر احتلت مكانا من قلوب العوام والخواص أكثر من آثار شعراء الفرس الآخرين، ذلك أن هناك بعض المتعصبين الذين لا يتحمسون لرباعيات الخيام ، كما أن كثيرا من الأفراد العاديين مع تعلقهم وشغفهم بسعدى وحافظ يعجزون عن إدراك اللطائف الدقيقة فى أشعارهما ، ولكن من الذى لا يتأثر من أعماق قلبه وروحه بالألحان اللورية الجذابة لبابا طاهر .. ومن الذى لا يدرك احتراق باطن هذا المتصوف العظيم ولا يقع تحت تأثير سحره .... وفى هذه الناحية لا يوجد فرق بين الأديب المتحضر والجاهل الريفى لأن الذين يعجزون عن قراءة هذه الرباعيات يتأثرون ويشغفون بها عن طريق السماع بالقدر الذى يحس به الأديب من التأثر والشغف عند قراءتها ." ويقول أيضاً " إن هناك كثيرين لا يعرفون القراءة والكتابة ولكنهم يحفظون رباعيات أبى العشاق " بابا طاهر " ويعتبرونها ملحاً ومرهماً لقلوبهم الجريحة.

وتمتاز رباعيات بابا طاهر عن غيرها من الرباعيات بمميزات كثيرة منها:

" أن هذه الرباعيات تمتاز بالبساطة البالغة من حيث سهولة ألفاظها وقرب معانيها وخلوها من التكلف والصناعة .

وأنها تجرى على وزن يغاير أوزان الرباعى المعروفة فهى تجرى على وزن الهزج المسدس المحذوف ولذلك نجد ناشر هذه الرباعيات يسميها " دوبيتى ها " بدلا من " رباعيات " لأن هذا الاسم أقرب صلة بوزن الهزج المكفوف المقصور.

وجدير بالذكر أن رباعيات بابا طاهر لا يعرف عددها على وجه التحديد وقد ذكر كليمان اوبار أنه يملك مخطوطا قديما لرباعيات بابا طاهر يحتوى على ٥٩ رباعية وقد اعتمد فى بحثه على هذا المخطوط .

كما ذكر ادوارد هرون الن أنه اعتمد فى كتابه " أشجان بابا طاهر " على المخطوط الذى يملكه كليمان اوبار وأنه عثر على ثلاث رباعيات أضافها إليها .

وقد طبعت رباعيات بابا طاهر مرتين :

الأولى : مع ترجمة فرنسية محشاة بواسطة الأستاذ " كليمان اوبار " فى المجلة الأسيوية عدد نوفمبر وديسمبر من سنة ١٨٨٥ م (المجموعة الثامنة ، مجلد ٦).

الثانية : مع ترجمة انجليزية منشورة مصحوبة بكثير من التعليقات بواسطة المستر "ادوارد هرون الن " فى كتابه "أشجان بابا طاهر " المنشور سنة ١٩٠٢م . وقد تضمن هذا الكتاب أيضا ترجمة أخرى منظومة للرباعيات كتبتها السيدة "اليزابيث كورتيس برينتون".

كما طبع أيضا مرتين فى إيران :

الأولى : بمطبعة أرمغان عام ١٣١١ هـ . وقام بنشرها وحيد دستگرى المحرر بمجلة أرمغان ، وتكرر طبعها حتى الآن تسع مرات .

والثانية : قامت بها دار مطبوعات أمير كبير بإيران وهذه الطبعة مقابلة للطبعة التى نشرها وحيد دستگردى .

لغة بابا طاهر :

اختلفت المصادر فى تحديد " اللغة " أو بالأحرى " اللهجة " التى نظم بها بابا طاهر رباعياته .

ويعتقد صاحب آتشكده أن رباعيات بابا طاهر منظومة باللهجة الراجية بينما يذهب وحيد دستگردى إلى أنها منظومة باللهجة اللورية .

ويرى رضا زاده شفق أن رباعيات بابا طاهر منظومة فى لهجة شبيهة بلهجة اللور التى تسمى فى الكتب القديمة بالفهلويات . ويذكر أن الطريقة التى تلفظ بها الكلمات – فى هذه الرباعيات – تحتفظ بشكل اللهجات الإيرانية القديمة وتقرب من البهلوية مثل استعماله لكلمة " مو " بدلا من "من " و" شو" بدلا من (شب) و"بنم" بدلا من (بينم) و" كرن " بدلا من (كنند) وتم بدلا من (گويم) .[1]

---

(١) " تاريخ ادبيات ايران " رضا زاده شفق .

وإذا رجعنا إلى أبحاث المستشرقين فى هذا المجال ، نجد " كليمان اوبار " يذهب فى بحثه المنشور فى المجلة الآسيوية إلى أن رباعيات بابا طاهر منظومة باللغة أو اللهجة البهلوية الإسلامية حتى لقد جعل عنوان بحثه هذا :

Les Quatrains de Baba Tahir Uryan en Pehlavi Moslem.

أى " رباعيات بابا طاهر العربان بالبهلوية الإسلامية ". وقد اعتمد " اوبار " فى هذا الرأى على ما جاء فى كتاب آتشكده من أن رباعيات بابا طاهر منظومة باللهجة الراجية ، فهو يقول: «إن هذه اللهجة تشبه قريناتها من لهجات الشمال فى بلاد فارس والتى تسمى بأسماء " گيلك ، مازندران ، تالش ،وغيرها، وهذه اللهجات متقاربة جدا سميت جمعيها بواسطة المؤلفين الشرقيين باسم " البهلوية "» ثم يضيف اوبار أنه يرى أن يزيد على هذا الأسم صفة الإسلامية " ليفرق بينهما وبين اللغة الفارسية القديمة التى تسمى أيضا باللغة البهلوية. (١)

أما ادوارد هرون الن فيقول «طبقا لما رواه Cobuneao فإن بابا طاهر كان ينظم باللهجة اللورية » ثم يستطرد قائلا «وربما كان من الخير أن نوافق على الرأى الذى جاء فى آتشكده من أن هذه الرباعيات نظمت بلهجة الراجى ، وهذه

---

(١) " تاريخ ادبيات " صفا جـ ٢ ، " سخن وسخنوران " بديع الزمان خراسانى " رياض العارفين " رضا قلى هدايت " تاريخ الأدب " براون جـ ٢، ص ٣٢٣.

اللهجة هى إحدى مجموعة اللهجات فى شمال فارس والتى اقترح اوبار تسميتها بالبهلوية الإسلامية» .

ويذكر هرون ألن أيضا أن براون أرسل إلى شيخ كرمان يستفسر عن هذه اللهجة فكتب إليه الشيخ يقول "أن اللهجة التى أرسلت إلىّ تطلب معلومات بشأنها هى لهجة اللور التى تستخدم فى شيراز وأصفهان وهى اللهجة البهلوية وقد نظم بها عدد من الشعراء مثل سعدى وأبى إسحق وحافظ وخواجوى كرمانى .

وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية أنه نظراً لصلة الشاعر بهمدان ولورستان فإنه من المعقول أن توجد آثار من لهجة هذه الأقاليم فى لغته .

كما نذكر أن البلاد الواقعة بين همدان وخرم آباد ما زال فيها عدة لهجات وأن اللهجة التى استعملها بابا طاهر ليست ذات صلة بلهجة واحدة معينة وإنما هى مستمدة من هذه اللهجات جميعها . ويؤكد هذا القول بأن بابا طاهر استعمل كلمة " نوم" بدلا من (نام) و" دستوم" بدلا من " دستم" و " دير " بدلا من (دور) وهذا الاستعمال خاص بلهجة اللور .

واستعمل أيضا كلمة " ميكرو" بمعنى (يفعل) و" آيو" بمعنى " يأتى " وهذا مستعمل فى لغة الحديث الكورانية . كما استعمل كلمة " ديوم " بدلا من (دارم) ولا يوجد شبيه لهذا الاستعمال إلا فى بلدة كازرون بالقرب من شيراز .

ويلاحظ أيضا أن بابا طاهر يحذف فى بعض رباعيته " دال" المضارعة وهو ما يستخدم عادة فى لغة الحديث فى همدان .

على أنه يجدر بنا فى هذا الصدد أن نذكر أن رباعيات بابا طاهر قد نقلت خلال تسعة قرون تقريبا عن طريق الرواية . ولا شك أنها تعرضت للتغييرات التى تطرأ عادة على مثل هذه الأغانى الشعبية عندما تدون . كما أن تتابع النساخ وربما جهلهم باللهجة التى كتب بها شعر بابا طاهر ، وإهمال بعضهم أيضا فى التحقيق من الناحية التاريخية ، وربما كان هذا كله مدعاة لوجود نصوص مختلفة متباينة إلى حد كبير لهذه الرباعيات .

ولا شك أنه من العسير أن نضع رباعيات بابا طاهر فى اللهجة التى استخدمها هو لأنه من الواضح كما ذكرنا أن هذه الأشعار كانت تنتقل عن طريق الرواية وأن الذين كانوا ينقلونها كانوا يحاولون النطق بها مفهومة واضحة حسب اللهجات والبلاد التى عاش فيها هؤلاء الرواة .

ونخرج من هذا كله بأن رباعيات بابا طاهر لم تنظم بلهجة واحدة معينة وإنما هى خليط من عدة لهجات متقاربة كانت سائدة فى شمال فارس .

الفصل الثانى

بابا طاهر من خلال رباعياته

عندما تحدث الكتاب والنقاد والباحثون عن حياة بابا طاهر، وصفوا هذه الحياة بأنها غامضة أو يحيط بها الغموض ، وكان مصدر هذا الغموض الذى أحاطوا به حياته أنهم لم يجدوا فى المصادر التى تعرضت لبابا طاهر - كما لاحظنا أثناء دراستنا لهذا الشاعر - لم يجدوا فى هذه المصادر إلا النذر اليسير من التفاصيل التى لا تكفى فى مجموعها لإعطائنا صورة واضحة عن حياة هذا الرجل .

وفى اعتقادنا أن جميع الباحثين الذين درسوا قد أغفلوا مصدراً هاماً وغنياً وخصباً يمكننا من أن نلقى أضواء قوية على حياة هذا الشاعر الكبير ونتعرف على ما خفى من جوانبها . وهذا المصدر الخصيب الغنى هو رباعيات بابا طاهر نفسها . فعن طريق دراسة هذه الرباعيات يمكننا أن نميط اللثام عما غمض فى حياة هذا الرجل ، وليس هذا فحسب ، بل ويمكننا أيضا أن نعرف الكثير عن اتجاهاته وميوله وطباعه وخصائصه ومذهبه فى التصوف وأسلوبه فى أشعاره والفرق بين هذا الأسلوب والأساليب التى استعملها غيره من الشعراء ، كما يمكننا بالتالى أن نقف على مكانته بين شعراء الرباعيات .

ومن أجل هذا نشعر أن دراسة رباعيات بابا طاهر هى المنفذ أو الباب الذى يفضى إلى دراسته دراسة صحيحة ، وهو الباب الذى وقف أمامه الكتاب والنقاد والباحثون ولا نعرف

السبب فى أنهم لم يلجوه ، ولو أنهم فعلوا لاستطاعوا أن يسدوا أكثر من ثغرة فى حياة بابا طاهر .

كل هذه خواطر سنحت لنا ونحن نقرأ رباعيات بابا طـاهر وشعرنا معها أن من واجبنا أن نساهم ولو بقليـل فـى إجـلاء الغموض الذى أحاط بحياة هذا الرجل .

والحقيقة أن بابا طاهر قد ساعدنا كثيرا فى هذا المجـال ، فهو يتحدث فى هذه الرباعيات عن الأماكن التى ارتادها والـبلاد التى عاش فيها ، وهو يصور لنا فى دقة نوع الحياة التى كـان يحياها ويوضح لنا آراءه فى هذه الحياة الدنيا كما يعطينا فكـرة واضحة عن آرائه الفلسفية والصوفية .

وقد عرفنا بابا طاهر فى رباعياتـه بموطنـه فـذكر أنـه همدانى ينتسب إلى مدينة همدان ، كما أشار مرارا إلـى جبـل الوند الذى يشرف على هذه المدينة .

يقول :

أنـا ذلـك الـصقر الأبـيض الهمـدانى
ولـي عـش خفـى فـى الجبـال
أطيـر بجنـاحى مـن جبـل إلـى جبـل
وأقـبض بمخـالبى علـى صـيدى (١)

---

(١) مـوآن آسـپيده بـازم همـدانى
لانـه در كـوه دارم در نهـانى
ببال خـود پـرم كوهـان بكوهـان
بجنگ خود كرم نخجير بانـى

ويقول :

غرست وردة على سـفح - جبـل - ألونـد
ورويتها بدموع العين فى الصباح والمـساء
وحينمــا حــان فــواح أريجهــا
حملتــه الــريح مــن أرض إلــى أرض[1]

ويصف لنا بابا طاهر مسلكه فى الحياة إنه درويش يحيـا حياة العزلة والانفراد ، ليس له أهل ولا عـشيرة ولا مـأوى ، يقضى نهاره فى الطواف ويتوسد فى نومه الأحجار .

يقول :

أنا ذلك الدرويش الـذى يـسمى بالقلنـدرى
لا أهــل لـــى ولا عـــشيرة ولا مـــأوى
عندما يـأتى النهـار أطـوف حـول حيـك
وعنــدما يـأتى الليـل أتوسـد الأحجـار[2]

---

(١) گلـى كـشتم پـى آلونـد دامـان
اوش از ديده دادم صـبح وشـامان
وقت آن بى كه بويش را موآيـــى
بره بادش بره سـامان بســـامان

(٢) موآن رندم كــه نـامم بـى قلنـدر
نه خان ديرم نه مان ديرم نه لنگـر
چو روز آيه بگـردم گـرد كويـت
چو شو آيه بخشتان وانهـم سـر

ويقول :

استــمع يـــا إلهـــي إلـــى شـــكوى فـــؤادى
فأنت أهل من لا أهل له وقد أصبحت بدون أهل
كل النـــاس يقولـــون إن طـــاهراً لا أهـــل لـــه
ولكن الله تعالى وليى فما حاجتى حتى إلى الأهل ؟(١)

ويصور لنا بابا طاهر كيف تغشي قلبه الهموم وتأخذ منــه الكآبه كل مأخذ فلا تزدهر في مروج أفكاره الا زهــور الأســى والحداد .

يقول :

إن للهـــم مكانـــا خربـــا فـــي صـــدري
مثل الأماكن الخربة التي تـــأوي إليهـــا البـــوم
إن الفلـــك يـــشع فـــي قلبـــي المـــسكين
كل ما يختزنـــه فـــي مخلاتـــه مـــن همـــوم(٢)

---

(١) خداونـــدا بفريـــاد دلـــم رســـى
كس بيكس تونى مو مانـــده بيكـــسى
همـــه گوينـــد طـــاهر كـــس نـــدارد
خدا يار منـــه چـــه حاجـــت كســـى

(٢) غـــم انـــدر سـينه موخانه ديـــرى
جو ويرانه كه بوم آشانه ديـــــــرى
فلك انـــدر دل مســـــكين مونـــــه
ازين غم هرچه درانبانـــه ديـــرى

ويقول :

لا ينبــت فـــي مـــروج أفكـــاري ســـوي الألـــم
ولا يزدهر في حديقتي سوي زهور الأسى والحداد
إن صـــــحراء قلبـــــي شــــديدة الجــــدب
حتـــى إن حـــشائش اليـــأس لا تنبـــت فيهـــا![١]

ويتميز بابا طاهر بنحو من أنحاء الضعف الإنساني فعيناه لا تنصرفان في سهولة عن التعلق بأسباب الحياة الدنيا ، وقلبه الثائر يشتعل بين ضلوعه ولا يريحه لحظة ، فيصرخ قائلا:

الغيـــاث مـــن فعـــل العـــين والقلـــب كليهمـــا
كـــل مـــا تـــراه العـــين يـــذكره القلـــب
أصـــنع خنجـــرا ذبابـــه مـــن فـــولاذ
أضربه فـــي العـــين لكـــي يتحـــرر القلـــب [٢]

---

(١) زكشت خاطـــرم جـــز غـــم نرويـــو
زباغم بجــــــز گل ماتم نرويـــــو
ز صحراى دل بيحاصـــــل مــــو
گيـــاه نا اميـــدى هم نرويـــــو

(٢) زدســـت ديـــده ودل هـــردو فريـــاد
هـــر آنچـــه ديـــده بينـــد دل كنـــدياد
بـــسازم خنجـــرى نيـــشش زپـــولاد
زنـــم برديـــده تـــادل گـــردد آزاد

ويقول :

أأنت أسد أم نمر أيها القلب
لأنك في حرب معي دائما
لو وصلت يدي إليك لسفكت دمك
لأرى من أي لون أنت أيها القلب [1]

ومما يلاحظ على بابا طاهر إنه يشبه نفسه مراراً بالصقر والهما وأنواع من الطيور كما يتحدث عن نفسه كثيراً مما يدل دلالة أكيدة على وضوح ذاتيته في شعره .

يقول :

أنا ذلك الصقر الأبيض وصدري مبرد
ومرعاى هى الجبال التي لا بداية لها ولا نهاية
إنهم يسنون كل سلاح بالمبرد
ولكنني أنا ذلك السيف الذي سنه الله [2]

---

(١) مگر شير وپلنگى ايدل ايدل
بمو دايم بجنگى ايدل ايدل
اگر دستم رسيد خونت بريختم
بوينم تاچه رنگى ايدل أيدل

(٢) موآن اسپيده بازم سينه سوهان
چراگاه مويى سريشن كوهان
همه تيغى بسوهان ميكرن تيز
موآن تيغم كه يزدان كرده سوهان

يقول :

أنا طائر " الهما " وموطني قمة الجبل
أطير في العالم من واد إلي واد
لا أهل لي ولا عشيرة ولا مأوى
وعندما أموت يكون كفني ريشي وجناحي(١)

ويتحدث بابا طاهر عن نفسه مشيراً إلي مكانته عند أهل الحق وإلي لقبه " العريان " .

يقول :

أنا ذلك البحر الذي عبئ في زجاجة
أنا تلك النقطة الضرورية للحرف
في كل ألف سنة يظهر رجل سوي محقق
وأنا ذلك الرجل السوي الذي ظهر في هذا العصر (٢)

---

(١) همـا يـونم سـر كـوهم وطـن بـى
سير عالم كـرم هـر جـا چمـن بـى
نه خون ديرم نه مون ديرم نه سامون
دم مردن پر وبالـم كفـن بـى

(٢) مرآن بحرم كه در ظـرف آمـد ستم
مرآن نقطـه كـه در حـرف آمدستم
بهـر الفـى الـف قـدى برآيـه
الـف قـدم كـه در الـف آمـد ستم

ويقول :

لا أدري من الـــذي جعلنـــي مجـــرداً وعريـــان
ومع أني جلاد ، لا أعرف من الذي ســـلبني روحـــي
أعطنـــي الخنجـــر لكـــي أمـــزق صـــدري
وأري مـــاذا صـــنع العـــشق بروحـــي[١]

ويتحدث بابا طاهر عن آرائه في الحياة الـــدنيا والآخـــرة فيدعو الناس إلي الزهد في الدنيا والتقليل منها ويقبح حـــسنها وزهوتها لأنها تخدع الناس ببريق كاذب ، ويري أن الـــدنيا مـــا هي إلا دار للفناء ومتاعها ما هو إلا متاع الغرور وفي نهايتهـــا يستوي الفقير والأمير ولن يعدم واحد منهما كفنا يلف فيه . كما يري أيضا أن الأحزان والآلأم التي يقاسيها الإنسان فـــي الـــدنيا يجب أن يحتسبها العاقل لأخرته فكأن الدنيا عنده هـــي مزرعـــة الآخرة .

---

(١) نـــزونم لـــوط وعريـــانم كـــه كـــرده
خـــودم جـــلاد وبيجـــونم كـــه كـــرده
بـــده خنجـــر تاســـينه كـــنم چـــاك
ببينم عشـــق بر جونـــم كـــه كرده

يقول :

إن جميع متاع الدنيا مآله إلي العدم والفناء
فأصرف نظرك عن متاع الدنيا
إن الهموم والألام التي في قلبك
هي ذخيرتك ليوم الحشر[1]

ويقول :

تجولت قليلا وكثيرا بين المقابر
ورأيت حال الغني والفقير
فلم أر فقيرا دفن بلا كفن
ولم أر غنيا دفن بأكثر من كفن واحد[2]

ويقف بابا طاهر موقف الناصح الواعظ فيهدي إلي الخلق القويم والإيمان الصحيح ، ويدعو الناس إلي عمل الخير والبعد عن الشر ويحثهم علي التمسك بأهداب الدين ويبشر المؤمنين بالأجر العظيم فيقول :

---

(٢) سراسر مال دنيا سوتنى بى
نظر ازمال دنيا دوتنى بى
غم ودردى كه دردل امروز
براى روز حشر اند وتنى بى

(٣) بگورستان گذر كردم كم وبيش
بديدم حال دولتمند ودرويش
نه درويشى بخاكى بى كفن ماند
نه دولتمند برد ازيك كفن بيش

لا تعملي عملا يـصير حجـر عثـرة لقـدمك
ويكون العالم علي سعته ضـيقا فـي وجهـك
وعنـــدما تقـــرأ الملائكـــة صـــحيفتك
تكـــون صـــحيفتك مبعـــث عـــارك (١)

يقول :

ما أســعد أولئــك الــذين يكـون الله ولــيهم
وتكون (قراءة) الفاتحة والإخـلاص عملهـم
وما أسـعد أولئـك الـذين يـديمون الـصلاة
إن جنات الخلد تكـون لهـم نعـم الجـزاء (٢)

ويبدو بابا طاهر بمظهر المؤمن الصالح الذي يخــاف الله ويرهب عذاب النار ، فهو يذكر يوم البعث والحساب ويقر بأنــه عبد مذنب ويخشى أن يجازيه الله علي تلك الذنوب ، ويعبر عن الرعب الذي يتملك نفسه فيورد أوائل الآيات التي يفهم منها أن الله بالمرصاد لكل مذنب والله سوف يحاسبه علي كـل صــغيرة

---

(١) مكن كــارى كــه بريــا ســنگت آيــد
جهـــان بـــاين فراخـــى ننگـــت آيـــد
چوفردا نامه خواهـــون نامـــه خواننـــد
ترا ازنامــــــه خواند ن تنگت آيـــــد

(٢) خوشـــا آناتكـــه الله يارشـــان بـــى
كه حمـد وقـل هـوالله كارشـان بـى
خوشـــا آناتكـــه دايـــم در نمازنـــد
بهـشت جـاود ان بـازار شـان بـى

وكبيرة ، وهو بإقراره هذا بذنوبه يضرع إلي الله أن يرحمه ويرأف به ويقول إنه مع كل هذا الخوف الذي يهز قلبه لا يقنط من رحمة الله تعالي ، فهو بذلك يضرع إلي الله ويطلب الغفران من طرف خفي .

يقول :

أه من ذلك اليوم الذي يكون الله فيه قاضينا
حيث يكون مصيرنا علي الصراط المستقيم
يعبره الشيوخ والشباب كل في دوره
أه من تلك اللحظة التي يأتي فيها دورنا [1]

ويقول :

إنني أخشي من " قالوا بلي "
لأن لي ذنوبا أكثر من أوراق الأشجار وقطرات المطر
إذا لم يمسك بيدي _ قولك _ لا تقنطوا "
فإني أخاف كل الخوف من " يا ويلنا " [2]

---

(١) وای از روزی که قاضی مان خدایو
سرپل صراطم ماجرا بو
بنوبت بگذرند پیر وجوانان
وای از آندم که نوبت ز آن ما بو

(٢) مواز قالوبلی تشویش دیرم
گنه ازبرگ وبارون بوشی دیرم
اگر لاتقنطودستم نگیره
موازیا ویلینا اندیش دیرم

وتتضح آراء بابا طاهر الصوفية من خلال رباعيته ، فنراه يتحدث عن رغبته فى الخلاص من هذه الحياة حياة الفناء والبلاء ويؤثر أن يزايلها إلى الحياة الأخرى ، حياة الخلود والبقاء . وهذا يدل على أنه يضرب على ذلك الوتر طالما ضرب عليه الصوفية ضرباً خفياً وهم يرمزون بذلك إلى رغبتهم فى الخلاص من حياة العدم والفناء والرحيل إلى حياة الخلود والبقاء لأنهم يعتقدون أن الروح كانت فى عالمها العلوى ، ثم كان من خطيئة آدم ما تسبب فى طرده من الجنة ، فهبط الإنسان إلى هذه الحياة الفانية الموحشة وسجنت روحه فى ذلك القفص الطينى الممقوت . وأمل الصوفى دائماً هو أن تنطلق روحه إلى مقرها الأول لتفنى فى الذات الإلهية .

يقول :

ما أطيب ذلك اليوم الذى يضمنى فيه القبر
وأتوسد الطوب والطين والأحجار
وتكون أقدامى فى القبلة وروحى منطلقة فى الصحراء
وجسدى يحارب الثعابين والنمل [١]

---

(١) خوش آنروزى كه قبرم ميكره تنگ
بيالين سرم خشت وگل وسنگ
دو پا در قبله وجان در بيابان
تنم با مار وموران ميكره جنگ

ويقول :

إن همـــوم قلبــى لا تعــد ولا تحــصى
والله يعلــم أن طــائر قلبــى " مــشوى"
إننــى أقبــل يــدك وســاعدك أيهــا الجــلاد
فوالله لو تقتلنى يكــون لــك ثــواب عظــيم(١)

ويردد بابا طاهر فكرة طالما رددهـا الـصوفية وهــى أن الجمال الإنسانى مظهر للجمال الأزلى ، فنراه يـسبح بحمـد الله ويوحده ثم يذكر الجمال وأهل الجمال على أن الله هو الذى يهب الجمال للجميل فكأن الوجوه الصباح من جمال الله وكأن الحسن الإنسانى منبعث من الحسن الإلهى .

يقول :

كـــريم مكانـــه حيـــث لا مكـــان
وهــو مــانح الــصفاء لجميــع الحــسان
وهــو الــذى يحفــظ الخلــق لــيلا ونهــارا
وهـــو الـــذى يـــرزق كـــل حـــى(٢)

---

(١) غــم درد دل مــوبى حــسابه
خــدا زونــه كــه مــرغ دل كبابــه
بنــازم دســت وبــازوى تــه جــلاد
اكــر قــتلم كــرى والله ثوابــه

(٢) كريمــى كــه مكــانش لامكــان بيــى
صــفا بخــش تمــام كلرخــان بــى
نكهــدا رنــده روز وشــو خلــق
بهــر جنبنده روزى رســان بــى

ويصف لنا بابا طاهر مراحل التصوف فيشير إلى أن الصوفى فى أول عهده بالتصوف لا بد وأن يسلك مراحل متعاقبة متدرجة حتى يصل إلى الحقيقة ، ولابد له فى سلوكه أن يعتمد على غيره وأن يتبع أحد الشيوخ فيقتفى خطواته ويتزود بنصائحه ويهتدى بهديه ليتمكن من السير قدما فى طريق الحقيقة .

يقول :

ما أسعد أولئك الذين يرونك فى كل لحظة
ويتحدثون إليك ويجلسون معك
إذا لم تكن لدى القوة لأن أجيئ لرؤيتك ،
فسوف أذهب لأرى أولئك الذين يرونك[1]

ثم يسوق لنا وصفاً رائعاً للصوفى وهو يمشى فى طريقه الذى تكتنفه المخاوف والمخاطر ، ذلك الطريق الذى درج الصوفية جميعاً على وصفه بأنه طريق شاق تحوطه المصاعب والأهوال وتحف به المهالك والمصاعب التى لا يزال السالك يكابدها حتى يصل فى النهاية إلى غايته القصوى وهى الفناء فى الله .

---

(١) خرم آنان كه هر زمان وبنن
سخون واته كرن نشينن
گرم پابى نه بى كايم ته وبنم
بشم آنون بوينم كه ته وبنن

يقول :

أيها القلب، إن طريقك مملوء بالأشواك والعوائق
ومكـــان عبـــورك علـــى أوج الفلـــك
إذا كان الجلد يسلخ مــن يــدك عــن الجــسد
فاقـــذف بـــه لكـــى تخفـــف أحمالـــك [1]

ويدعو بابا طاهر إلى سلوك الطريق والجـد فـى الطلـب والصمود فى طريق العشق مهما اكتنفه من الصعاب والأهوال ، ويندد بالعاجزين الذين يقعدون عن التماس عالم الروح وبلـوغ مقام العشق الإلهى ، ويمجد الآلام التى يعانيها العاشق فى سبيل الوصول إلى المعشوق والفناء فيه .

فيقول :

أولـــى بالقلـــب الـــذى لا يعـــشق أن يعـــصر
وأولـــى بالـــذى لا يكابـــد الألـــم أن يمـــوت
والجسد الذى لا يـصمد فـــى طريـــق العـــشق
أولى بـــه أن يحـــرق بالنـــار ذرة بعـــد ذرة[2]

---

(١) دلا راه تـــه پرخـــار وخـــسك بـــى
گـــذرگاه تـــه بـــراوج فلـــك بـــى
گرازدســـتت بـــر آيوپوســـت از تـــن
برافكن تاكـــه بارت كمتـــرك بـــى

(٢) دل بـــى عـــشق را افـــسردن اولـــى
هركه دردى نـــداره مـــرد فـــان اولـــى
تنـــى كـــه نيـــست ثابـــت دروه عـــشق
ذره ذره بآتشـــى ســـوختن اولـــى

ويقول :

كل شخص يكون عاشقا لا يخشى على نفسه
فالعاشق لا يخشى المصاعب ولا السجن
وقلب العاشق ذئب جائع
والذئب لا يخشى صوت الراعي[1]

ويستعمل بابا طاهر اللسان المرموز فى تصوير افتنانه بالمعشوق وما يعانيه من لوعة الهوى وعذاب الهيام وما يكايده من القلق والاضطراب .

فيقول :

أيتها الزهرة ، إننى مفتون برائحة طرتك
وقلبى مجروح من لون وجهك
أنا عاشق ولا قرار لى بسبب عشقك
لأنك مثل ليلى وأنا المجنون أيتها الزهرة [2]

---

(١) هرآنكس عاشق است ازجان نترسد
عاشق ازكنده وزندون نترسد
دل عاشق بود گرك گرسنه
كه گرك ازهى هى چوپزن نترسد

(٢) زبوى زلف ته مفتونم اى گل
زرنگ روى ته دلخونم اى گل
من عاشق زعشقت بى قرارم
توچون ليلى ومن مجنونم اى گل

ويشير بابا طاهر إلى نظرية الاتحاد عند الصوفية ، فهم يعتقدون أن التصوف مراحل يقطعها الصوفى ولا يزال يتدرج من مرحلة إلى مرحلة حتى يصل إلى مرحلة الفناء والاتحاد بالله وفى هذه الدرجة تتلاشى شخصية الطالب وتختلط بشخصية المطلوب (أى الله) فيصبح الله سمعه وبصره ولسانه ويده وفى هذه الحالة تختلط الأشياء فلا يعرف من يكون العاشق ومن يكون المعشوق .

يقول :

إذا كان القلب هو الحبيب فمن يكون المحبوب ؟
وإذا كان الحبيب هو القلب فماذا يكون اسم القلب ؟
أرى القلب والحبيب قد امتزجا
فلا أعرف أيهما القلب وأيهما الحبيب[1]

يقول :

ما أسعد أولئك الذين لا يعرفون الروح من الجسد
ولا يفرقون الروح من الحبيب ولا الحبيب من الروح
يتعودون على آلامه سنين وشهورا
ولا يعرفون دواء لآلامهم[2]

(١) اگر دل دلبره دلبر كدومه
وگر دلبر دله دل راچه نومه
دل ودلبر بهم آميته وينم
ندونم دل كه ودلبر كدومه

(٢) خرم آنان كه ازتن جان ندونند
زجانان جان زجانان ندونند
بدردش خوكرن سالان وماهان
بدرد خويشتن درمان ندانند

ويحلم بابا طاهر بالفناء فى المعشوق فيصف احتراقه بنار العشق ويصور الفناء التام الذى يحلم بـه الـصوفى الواصـل فيصف نفسه بأنه قد احترق حتى لم يعد يظهر أثر لرماده .

يقول :

فلأمـــت حتـــى لا تـــرى عيونـــا دامعـــة
ولا تـــرى شـــرارة نـــار التأوهـــات
إننـــى أحتـــرق مـــن نيـــران عـــشقك
حتـــى أنـــك لا تـــرى لـــون رمـــادى [1]

وفى هذا مبالغة فى وصف الفناء التام فى الذات الإلهيـة ، ذلك الفناء الذى يرى فيه بابا طاهر الـدواء الوحيـد الـشافى لآلامه.

يقول :

إن همـــوم الفلـــك مـــن نـــصيب روحـــى
وتحرير هذه الـروح يحتـاج إلـى الكيميـاء
إن ألم كل شخص يصل فى النهاية إلى عـلاج
ولكـــن دواء قلبـــى هـــو الفنـــاء [2]

---

(١) بميـــرم تاتـــه چـــشم ترنـــوينى
شـــرار آه بـــر آذر نـــوينى
چنـــان ازآتـــش عـــشقت بـــسوجم
كه از مورنگ خاكســـتر نوينـــى

(٢) غـــم دوران نـــصيب جـــان مـــابى
زدرد مافراغـــت كيميـــا بـــى
رســه آخـر بـدرمون درد هـر كـس
دل مـــابى كـــه در مـــونش فنـــابى

" بابا طاهر بين أشهر شعراء الرباعيات "

سبق أن ذكرنا أن بابا طاهر العريان هو أحد شعراء أربعة تخصصوا فى الرباعى واعتمدت شهرتهم على هــذا الفــن دون غيره من الفنون الشعرية الأخرى . وهؤلاء الــشعراء الأربعــة هم:

أبو سعيد بن أبــى الخيــر
بابا طاهر العريان الهمدانى
الشيخ عبد الله الأنــصارى
عمـــــــــر الخـيـــــام

ولا شك أنه إذا أردانا أن نتعرف على مكانة بابا طاهر بين هؤلاء الشعراء فإنه ينبغى علينا أن نعقد موازنة بينــه وبيــنهم لكى نتبين أوجه الشبه والخلاف بين بابا طــاهر وبــين هــؤلاء الشعراء والمميزات التى انفرد بها بابا طاهر دون زملائه سواء من ناحية الأسلوب أو المعانى التى طرقها ، ومبلغ توفيقه فــى ابتكار المعانى والتشبيهات والصور الشعرية .

وإذا تعرضنا أولا للموازنة بين بابا طاهر وأبى سعيد بــن أبى الخير وجدنا أن النظرة الأولى إلى رباعيات كل منهما تكفى للدلالة على أن أبا سعيد يغوص فى أعمق المعانى الــصوفية ، فمعانيه بعيدة دائماً كما أننا لا نقع فى رباعياته على تلك الصور الشعرية الجميلة التى نصادفها كثيراً فى رباعيات بابا طــاهر . فشعر أبى سعيد فيه شئ من الجفاف الذى يتعــارض تعارضــاً ظاهراً مع سلاسة أشعار بابا طاهر ورقتها وتلك المعانى القريبة

التى تبدو فى ظاهر ألفاظه وتلك الصور الشعرية الأخـاذة التـى تجعل لشعره روعة فنية ساحرة .

ويتضح هذا الرأى إذا استعرضـنا هـاتين الربـاعيتين ، الأولى لبابا طاهر ، يقول :

مادامت لك هـذه العيـون الحالمـة المكتحلـة
ومادامت لك هذه القامة الممشوقة التى تسلب القلب
ومادمت جدائلك العنبرية تنـساب علـى ظهـرك
فكيف تسألنى بعد هذا : لماذا أنت حـائر تائـه ؟[١]

والثانية لابى سعيد ، يقول :

منـذ رأيـت وجهـك يـاحبيبى الجميـل
لا أفعـل شـيئا ، فـلا أصـوم ولا أصـلى
وعندما أكون معك يكون مجازى كلـه صـلاة
وتكـون صـلاتى كلهـا مجـازا[٢]

---

(١) نه كت نازنده چشمون سرمه سايه
نـه كـت بالنـده بـالادل ربايـه
تـه كـت مـشكينه گيرسـود برقفايـه
بـى واجن كه سر گردون چرايـه

(٢) تاروى تـرا بديـدم اى شـمع طـراز
نى كار كنم ، نه روزه داوم نـه نمـاز
جون باتوبوم مجاز مـن جملـه نمـاز
جون باتوبوم نماز مـن جملـه مجـاز

فشعر أبى سعيد شعر صوفى لا يصلح إلا ليكون صوفياً ، أما شعر بابا طاهر فإنه يصلح لأن يكون صوفياً كما يمكن أن يؤول تأويلا آخر ليكون غزلا إنسانياً واقعياً .

على أن الشاعرين يشتركان فى طرق بعض المعانى الصوفية كما يبدو من قول بابا طاهر :

فلأمت حتى لا ترى عيونا دامعة
ولاترى شرارة نار التاوهات
إننى أحترق بنيران عشقك
حتى أنك لا ترى لون رمادى (١)

فهذه الرباعية التى يصف فيها بابا طاهر احتراقه بنار العشق يذكر فيها الفناء التام الذى يحلم به الصوفى الواصل ، فهو يريد أن يحترق حتى لا يظهر أثر لرماده ، وهذه مبالغة وإغراق فى وصف الفناء التام ذلك الفناء الذى يذكرنا بقول أبى سعيد :

(١) بميرم تاته چشم تر نوينى
شرار آه بر آذر نوينى
چنان ازاتشى عشقت بسوجم
كه از مورنگ خاكستر نوينى

إن جسدى كله دموع وقد بكت عيونى
فيجب أن يعيش العاشق فى عشقك بدون عيون
لم يبق منى أثر فمم يكون هذا العشق
ومادمت قد أصبحت المعشوق فمن يكون العاشق [(١)]

وإذا تركنا أبا سعيد إلى أبى عبد الله الأنصارى نجد أنه فى منزلة بين المنزلتين ، فهو ليس له عمق وغموض أبى سعيد ولا سلاسة وبساطة بابا طاهر .

على أننا نجد فى بعض رباعياته ما يذكرنا بدأب بابا طاهر فى المبالغة وتوفيقه فيها كما يبدو من هاتين الرباعيتين :
الأولى لبابا طاهر ، يقول :

إن النسائم التى تفوح من شعرك المسترسل
تطيب لى أكثر من رائحة السنبل
وعندما أضم خيالك إلى صدرى فى الليل
تفوح رائحة الورود من فراشى فى وقت السحر [(٢)]

---

(١) جسم همه اشك است وچشم بگريست
در عشق توبى جشم همه بايد زيست
از من اثرى نماند اين عشق زچيست
چون من همه معشوق شدم عاشق كيست

(٢) نسيمى كزين آن كاكل آيو
مراخوشتر زبوى سنبل آيو
چوشو گيرم خيالت رادرآغوش
سحر از پسترم بوى گل آيو

والثانية لأبى عبدالله ، يقول :

إننى لحترق من الهجر ومن الخجل عندما أتخيل الهجر
كما أحترق من الوصل خوفا من زواله
وهكذا يكون حال الفراشة مع الشمعة
فهى تحترق فى الهجر وتحترق فى الوصل [١]

فبابا طاهر فى رباعيته يحدثنا كيف أنه تخيل طيفاً للحبيب فى فراشه وكيف أنه بعد انصراف هذا الطيف يشم عطر الحبيب فى مخدعه .

وأبو عبد الله ينحو منحى بابا طاهر فى المبالغة فيقول إنه يحترق من الهجر ويحترق من الخجل عندما يتخيل هذا الهجر كما يحترق من الوصل ومن الهجر مثل الفراشة ، فهذه الطريقة الجميلة فى التعبير تشبه طريقة بابا طاهر

أما هذه الرباعية التى يقول فيها أبو عبدالله :

---

(١) از هجر همى سوزم از شرم خيال
در وصل همى سوزم از بيم زوال
پروانه شمع راچنين باشد حال
در هجر بسوزد وبسوزن وصال

في عشقك أكون ذليلا تارة ومنتشياً تارة أخرى
وفى ذكرك أفنى تـارة وأحيـا تـارة أخـرى
إذا لـم تأخـذ بيـدى فـى ذلـى ونـشوتى
فـسوف أقـع كليـة أيهـا الحبيـب [1]

فإننا نجد فيها روح التضرع التى تصادفها كثيراً عند بابا طاهر ، فأبو عبدالله فى هذه الرباعية يصف ضعفه أمام قوة الله وذلته أمام عزة الخالق ثم يسأله بعد ذلك أن يأخذ بيـده ويمـده بروح من عنده ، وفى هذا ما يذكرنا بقول بابا طاهر :

يا إلهـى مـن أنـا ؟........ومـن أكـون ؟
وإلام تمتلـئ أهـدابى بالـدموع الداميـة ؟
إن الجميع يبعدوننى عن ديارهم فأتجـه إليـك
وإذا كنت تبعدنى عن بابك فإلى أين أذهـب ؟[2]

---

(١) در عشق توگه بست گه مـست شـوم
وزياد توگه نيـست گـه هـست شـوم
دربـستى ومـستى ارنگيـرى دسـتم
يكبـارگى اى نگـار ازدسـت شـوم

(٢) خداونـدا كـه بوشـم باكـه بوشـم
مـژه پراشـك خـونين تاكـه بوشـم
همـه كـز در بـرانن سـوته آيـم
توكـم ازدر بـرانى واكه بوشـم

ويشترك الشعراء الثلاثة فى طرق ذلك المعنى الذى درج الصوفية على طرقه وهو القول بوحدة الأديان ، فهم لا يفرقـون بين دين ودين ، لأنهم ليسوا أهل طريقة وإنما هم أهل حقيقـة ، ويريدون أن يعرفوا الحقيقة ويصلوا إلى الفنـاء فـى الله بأيـة وسيلة ، والأديان جميعا لديهم سواء وأماكن العبادة عندهم فـى مقام واحد ، فهم لا يفرقون بين بيعة اليهود ولا كعبة المسلمين ولا معبد الوثنيين ولا دير النصارى لأنها فـى نظـرهم بمنزلـة سواء ، مادام الحبيب – أى الله – فيها .

يقول بابا طاهر :

إذا كنت أشد السكارى سكراً فمنك يكون الإيمان
وإذا كنـت عـاجزاً فمنـك يكـون الإيمـان
وإذا كنت عابداً للأصنام أو هنـدياً أو مـسلماً
ففى كل ملة أكونها ؛ منك يكـون الإيمـان [١]

---

(١) اگـر مـستان مـنم ازتـه ايمـان
وكربـى پـا و دسـتم ازتـه ايمان
اگـر گبـريم وهنـدو ور مـسلمان
بهر ملت كه هسـتم ازتـه ايمـان

ويقول أبو سعيد :

هنـــــاك حيـــــث تكـــــون عنايـــــة الله
يكـــون العـــشق نهايـــة أمـــر الزاهـــد
وهنـــاك حيـــث يكـــون قهـــر الكبريـــاء
يكــــون الـــــساجد نـــــصرانياً [1]

ويقول أبو عبد الله :

إننى ثمل بك فلا حاجة إلـى الخمـر والكـأس
كما أننى صيدك فلا حاجة إلـى الحبـة والفـخ
إن مقصودى من الكعبة ومعبد الأصنام هو أنت
وإلا لتحـــررت مـــن هـــذين المقـــامين[2]

---

(١) آنجـا كـه عنايـت خـدائى باشـد
عـشق آخـر كـار بارسـائى باشـد
وآنجـا كـه قهـر كبريـائى باشـد
سـجاده نشـين كليسائى باشـد

(٢) مـست تـوام از بـاده وجـام آزادم
صـيد تـوام ازدانـه ودام آزادم
مقصود مـن ازكعبـة وبتخانـه تـوئى
ورنه من ازايـن هـر دو مقـام آزادم

ويقول بابا طاهر :

ما أسعد أولئك الذين لا يعرفون رؤوسهم من أقدامهم
ولا يفرقـــون بـــين الجـــاف والرطـــب
ولا يعرفون فى البيعة والكعبة ومعبـد الأصـنام
والـــدير ، قـــصرا خاليـــا مـــن الحبيـــب (١)

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى عمر الخيام نجد أن هنـــاك تباينـــا كبيرا بينه وبين بابا طاهر . فبابا طاهر فى رباعياته يبدو رجـــلا زاهدا متعبدا ويدعو إلى الزهد والانصراف تماماً عن متع الدنيا ولذائذها أملا فى أن ينال المثوبة فى الآخرة وهو يـؤمن بـــالله إيماناً قوياً ويعتقد اعتقاداً راسخاً فى البعث والنشور.

وعلى العكس من ذلك تماماً نجد الخيام رجلاً عابثاً يـدعو إلى التهالك على الملذات ويرى أن السعادة هى الغاية المثلى من الوجود ، كما يبدو متشككا يسخر من الفقهاء تارة ويتهكم علـــى الصوفية تارة أخرى ويقول ما يؤخذ منه أنه رقيق الإيمان فهـــو لا يؤمن بشئ من عذاب الله ونعيمه وحسابه وآخرتـــه ويظهـــر تشككا فى كل هذا .

---

(١) خوشـــا آنونكـــه از پاســـر ندوننـــد
ميـــان شـــطه خـــشك وتـــر ندوننـــد
كنـــشت وكعبـــه وبتخانـــه وديـــر
ســـرائى خـــالى از دلبـــر ندوننـــد

ورغم ما يذهب إليه البعض من أن الخيام كان رجلاً صوفياً وأن الخمر التى طالما تغنى بها ما هى إلا خمر معنوية ، إلا أنه على أصح الآراء لم يكن صوفياً على الأطلاق وإن كان يصطنع لغة الصوفية فى الرمز والإيماء لأن هذه الطريقة هى التى كانت سائدة فى عصره .

ويبدو التباين بين الشاعرين من هاتين الرباعيتين :

الأولى لبابا طاهر يقول :

إن جميع متاع الدنيا مآله إلى العدم والفناء
فاقطع نظرك عن متاع الدنيا
إن الهموم والآلام التى فى قلبك اليوم
هى ذخيرتك ليوم الحشر (١)

والثانية للخيام ، يقول :

لم هذا الغم من أجل المال ، والحسرة من أجل الدنيا
أرأيت أحدا قط عاش خالدا فيها
إن هذه الأنفاس التى فى بدنك ما هى إلا وديعة
فينبغى أن تعيش مع الوديعة كالوديعة (٢)

---

(١) سراسر مال دنيا سوتنى بى
نظر از مال دنيا دوتنى بى
غم ودردى كه در دل امروز
براى روز حشر اندو تنى بى

(٢) چندين غم مال وحسرت دنيا چيست
هرگز ديدى كسيكه جاويد بزيست
اين يكدو نفس درتن توعاريت است
باعاريتى ، عاريتى بايد زيست

فعلى الرغم من أن الشاعرين يطرقان معنى واحداً ويتفقان على أن هذه الدنيا لا خير فيها وأنها إلى فناء وأن العمر فيها محدود والعاقل هو الذى لا يأبه بها ولا بمتاعها ، إلا أنهما يختلفان فى الرأى بعد ذلك فنجد الخيام يعجب ويتساءل عن هذا الحزن من أجل المال والحسرة على الدنيا وكأنه بذلك يدعو إلى عدم الحزن عليها وعدم الاكتراث بأى شئ فيها ويفهم من هذا أنه يدعو إلى البهجة والسرور ونسيان هموم الدنيا وأحزانها .

أما بابا طاهر فهو إذا ذكر هذا من صفة الدنيا فإنه لا يدعو إلى نبذها ولا ينصح بعدم التحسر عليها وطرح آلامها وأحزنها ، بل إنه يكاد يمتدح هذه الآلام والأحزان لأنه يعتبرها ذخراً للمؤمنين يثابون عليه فى يوم الدين فكأنه بذلك يدعوهم إلى الحزن فى الدنيا ليجزل الله لهم العطاء فى الآخرة .

ولكن الخيام لا يحبذ هذا الحزن ولا يراه نافعاً فيدعو إلى البهجة فى الدنيا وإلى همومها والآمها برشفة من الصهباء وجلسة مع الحسناء ، فيقول :

اهنأ يا خيام إذا ثملت من نشوة الخمر
واهنأ إذا جلست مع ذوات الوجه القمرى
إذا كانت عاقبة الدنيا هى الفناء
فافترض فناءك وعش ناعم البال (١)

ويزداد الخلاف وضوحا بين الشاعرين فى هاتين الرباعيتين ، الأولى لبابا طاهر يقول :

آه من ذلك اليوم الذى فيه الله قاضيناً
حيث يكون مسيرنا على الصراط المستقيم
يعبره الشيب والشباب كل فى دوره
آه من تلك اللحظة التى يأتى فيها دورنا (٢)

---

(١) خيام اگر زباده مستى خوش باش
باماه رخى اگر نشستى خوش باش
چون عاقبت كار جهان نيستى است
انگاركه نينى چوهستى خوش باش

(٢) واى از روزى كه قاضى مان خدايو
سرپل صراطم ماجرا يو
بنوبت بگذرند پير وجوانان
واى از آندم كه نوبت زآن مايو

الثانية للخيام يقول :

قالوا سوف يكون هناك حساب يوم الحشر
وسوف يضيق صدر الحبيب فى ذلك اليوم
هل يكون من الجميل سوى شئ جميل
فهنأ إذن لأن العاقبة ستكون طيبة [1]

فالخيام فى رباعيته يبدو رجلا متهالكا على اللذة متهافتا على المرح وقد جعله انغماسه فى المتع مرحا متفائلا لا ينظر إلا إلى الجانب الباسم فى الحياة حتى إنه إذا ذكر أهوال القيامة وما سوف يلقاه أمثاله من هول العذاب ، التمس بتفاؤله مخرجا لنفسه فيقول إن الله لا يمكن أن يصدر عنه إلا الخير ، وعلى هذا فلن يصيبه من الله مكروه قط ولذلك فهو يترك لنفسه العنان لتنال ما تصبو إليه من أنواع المتع والملذات .

أما بابا طاهر فيبدو رجلاً زاهداً عابداً يخاف الله ويرهب عذابه ، ورغم أنه من أهل التقوى والإيمان إلا أنه لا يثق فى نفسه مع كل هذا ويغلب عليه الخوف والتشاؤم فيخشى يوم الحساب ويرهب عذاب النار وكان الأولى بمثل الخيام أن يخشى ذلك : ولكن الفرق البعيد بين مسلك الرجلين فى الحياة هو الذى أوجد الفرق بين نفسيتيهما وشعورهما وشعرهما .

---

(١) گويند بحشر جستجو خواهد بود
وآن يار عزيز تندخو خواهد بود
ازنيكى محض جزء نكوئى نايد
خوش باش كه عاقبت نكو خواهد بود

ويتضح التناقض بين الشاعرين فى صورة أقــوى عنــدما نستعرض هاتين الرباعيتين :

الأولى لبابا طاهر يقول :

أنا ذلك النمل الذى لا يعرف رأسه مــن قدمــه
ولا يعـــرف شـــيئا ســـوى المحبـــوب
والمحبـــوب الـــذى يـــريح قلبـــى
لا يكـــون ســـوى ســـاقى الكـــوثر [1]

والثانية للخيام ، ويقول :

يقـــال إن هنـــاك جنـــة وحـــور وكـــوثر
وهناك خمر صـــافية ولـــبن وعـــسل مـــصفى
اعطنى أيها الساقى كأسا علـــى ذكـــرى ذلـــك
لأن نقداً واحداً فى اليد خير من ألف مرتقـــب[2]

---

(١) مرآن مـــستم كـــه پـــا زســـر نـــزونم
ســـر وپـــائى بجـــز دليـــر نـــزونم
دلارامـــى كـــز او گيـــرد دل آرام
بغيـــر از ســـاقى كـــوثر نـــزونم

(٢) گويند بهـــشت وحـــور وكـــوثر باشـــد
وآنجا مى نـــاب وشـــير وشـــكر باشـــد
يـــك جـــام بـــده بيـــاد آن اى ســـاقى
نقـــدى زهـــزار نـــسيه بهتـــر باشـــد

فالخيام كدأبه يسترسل فى تهكمه المرير وتشككه فى البعث والدار الآخرة ، فهو لا يصدق أن هناك خمرا فى الآخرة وإذا قيل له ذلك شبهه بقول الغريم الذى يماطل فى دفع الدين فهو لا يصدق مثل هذه الأقوال ولا يصدق إلا ما تراه عينه ، وعلى هذا فهو لا يريد أن يصبر إلى يوم القيامة ليشرب الخمر فى الجنة وإنما يهرع إلى شربها فى الدنيا لأنه يتشكك فى وجود مثل ذلك اليوم .

أما بابا طاهر فهو يؤمن بالبعث إيماناً راسخاً ولا يتشكك فيه مطلقاً وهو يحرم الخمر على نفسه فى الدنيا ويأمل فى أن يشربها فى الجنة ، فخمر بابا طاهر فى الدنيا خمر إلهية تفعم قلبه بنشوة الإيمان وتقربه من ربه وتدخله فى زمرة المؤمنين الذين يحرمونها على أنفسهم فى الدنيا لينعموا بشربها فى الآخرة .

وعلى الرغم من هذا الاختلاف الشديد بين الشاعرين سواء فى آرائهما أو مسلكهما فى الحياة ، ذلك الاختلاف الذى أوجد تباينا كبيرا بين أشعارهما فإننا نعثر على بعض الرباعيات التى يقترب فيها الواحد منهما من الآخر فى طرق بعض المعانى وطريقة أدائها كما يبدو من هاتين الرباعيتين .

الأولى لبابا طاهر يقول :

إن الأجـــل ألـــم لـــيس لـــه عـــلاج
وأمـــره يـــسرى علـــى الملـــوك والـــوزراء
فالملك الذى كان بالأمس يأكل خـــراج كرمـــان
أصـــبح اليـــوم طعامـــا للديـــدان [1]

والثانية للخيام ، يقول :

ذلك القصر الذى طالما تمتع فيه بهرام بشرب الخمر
صـــار مكمنـــاً للظبـــاء وابـــن آوى
إن بهرام الـــذى كـــان يـــصيد حمـــار الـــوحش
تأمل كيف اصطاده القبرا[2]

(١) درديست اجل كـــه نيـــست درمـــان اورا
برشـــاه ووزيـــر هـــست فرمـــان اورا
شاهى كه بحكم دوش كرمـــان ميخـــورد
امروز همين خورنـــد كرمـــان اورا

(٢) آن قصر كه بهـــرام دراوجـــام گرفـــت
آهو بچـــه گـــرد وروبـــه آرام گرفـــت
بهرام كه گـــور ميگرفـــت همـــه عمـــر
ديدى كه چگونه گـــور بهـــرام گرفـــت

فالتورية التى عمد إليها الخيام فى كلمة " گور " بمعنــى حمار الوحش أو قبر تشبه التورية التى استعملها بابا طاهر فى كلمة " كرمان " بمعنى اقليم كرمان وبمعنى الدود " فبابا طــاهر يقول إن الملك الذى كان يأكل خير كرمان أصبحت الديدان هــى التى تأكله ، والخيام يقول ان بهرام الذى كــان يــصيد حمــار الوحش أصبح صيداً للقبر . فالشاعران يطرقان معنى واحــداً . كما يتشابهان فى طريقة أداء ذلك المعنى . ولا شك أن احــدهما تأثر بالأخر ، ومن المرجح أن الخيام هو الذى تأثر ببابا طــاهر لأن بابا طاهر يسبقه زمنياً .

أما هذه الرباعية التي يتشبه فيها بابا طاهر بالخيام ويقول :

أنا ذلك الدرويش الذي مهنته العــصيان
أمسكنا الكأس بيد والزجاجــة بــالأخرى
إذا كنت بلا ذنب فأذهــب فإنــك مــلاك
ولكننــــي مـــن نـــسل أدم وحـــواء(١)

---

(١) مـــرآن رنـــدم كـــه عـــصيان پيـــشه
بدســـتى جـــام ودســـتى شيـــشه ديـــرم
اگرتـــه بـــى گنـــاهى روملـــك شـــو
مـــــرا ز حــــوا وآدم ريشه ديـــرم

فمن المرجح أنها مدسوسة علي بابا طاهر أو منحولة لأنها في معانيها غريبة عليه بعيدة عن مذهبه ، لأنه حتى وهو يصطنع لغة الصوفية ويذهب مذهبهم في الرمز والإيماء لا يكثر من أوصاف الخمر والسكر والعصيان ، لذا فإن هذه الرباعية التي يجاهر فيها بعصيانه لا شك أنها منحولة وهي تذكرنا برباعية لعمر الخيام يقول فيها :

لا تسلك غير طريق دراويش الحانة
ولا تطلب غير الخمر والسماع والمحبوب
ليكن في يدك القدح وعلي كتفك الجرة
واشرب الخمر أيها الحبيب وكف عن الهذيان(١)

ولا شك أن مميزات شعر بابا طاهر التي تبعث في الناس المتعة والسرور هي ما تلمسه في شعره من عاطفة متوقدة قوية عبر عنها بأسلوب سهل بسيط لا يخلو من خيال مبتكر .

وتنقسم رباعيات بابا طاهر إلي نوعين من أنواع الشعر الغنائي ولعله من العسير أن نضع حدودا فاصلة نميز بها بين العبارات الصوفية وعبارات الحب الإنساني لأن شعراء الصوفية

---

(١) جز راه قلندران ميخانه مپوى
جزباده وجز سماع وجز يار مجوى
در كتف قدح باده وبر دوش سبوى
مى نوش كه اى نگار وبيهوده مگوى

استعملوا نفس الألفاظ والتعبيرات التي استعملها الشعراء المتغزلون حتى أن القارئ يحتار بين أشعار العشق العادي والعشق المجازي .

وتتضح سمات شاعرية بابا طاهر في رباعياته فهو يبدو شاعراً غنائياً في أشعاره فنراه إذا تصدي لوصف منظر من المناظر لا يصفه وصفاً سطحياً وإنما يصفه من حيث تأثره به فيري به ما لا يراه غيره .

إن قلبي ميال إلي زهور حديقتك
وصدري كله محترق بنيران حبك
وأود أن أذهب إلي حديقة الشقائق لأسعد قلبي
ولكن واسفاه .. إن الشقائق مجروحة مثلي[١]

فهو في هذه الرباعية يشعر بالتجاوب بين نفسه المحزونة وبين زهرة الشقائق حتى أن هذه النفس المتألمة تشع الحزن والألم علي تلك الزهرة فتجعلها جريحة مثله .

ولبابا طاهر حذق كبير في توفيق المعاني والتوفيق في تشبيهاته .

---

(١) دل ميل گل باغ ته ديره
سرامسر سينه داغ ته ديره
بشم الا له زارآن دل كرم شاد
ديم الا له هم داغ ته ديره

يقول :

لــــي قلـــب مثـــل الطـــائر المكـــسور الـــساق
وهو كالسفينة المعطلـــة علـــي شـــاطئ البحـــر
الجميع يقولون يا طـــاهر أعـــزف علـــي الـــوتر
ولكن كيف ينبعث الصوت من الوتر المقطوع [(١)]

فهو في هذه الرباعية يشبه قلبه بالطائر الجريح وبالقارب المحطم ، ثم يزيد تشبيها ثالثا لنفسه فيشبهها بالوتر المقطـوع مبالغة في وصفها بالنحول والضعف وهذه تـشبيهات رائعـة لا تصادفها كثيراً عند غيره من شعراء الرباعيات ، فهـي ليـست صوراً شعرية أكثر الشعراء من تناولها حتـى أصـبحت معـادة مبتذلة .

ولبابا طاهر قدرة كبيرة علي تجسيم الخيال وإفراغ الألوان الزاهية علي الصور الشعرية – يقول :

---

(١) دلـــى ديـــرم چـــو مـــرغ پـــا شكـــسته
چـــو كـــشتى برلـــب دريـــا نشـــسته
همه گـــوين كـــه طـــاهر تـــار بنـــواز
صـــدا چـــون ميدهـــد تـــار گســـسته

إن النسائم التي تفوح من شــعرك المــسترسل
تطيــب لـــي أكثـــر مـــن رائحـــة الـــسنبل
وعندما أضم خيالك فـــي الليـــل إلـــي صـــدري
تفوح رائحة الورود من فراشي في وقت السحر (١)

فهو في هذه الرباعية يتخيل طيفا للحبيــب ويمعــن فــي التخيل إلي أبعد مدي حتى ينسي أنه أمام طيف ويتوهم أنه أمام إنسان ملء العين والقلب ، أما تلك المرأة العطرة التــي تغــادر بيته فلا يغادره معها عطرها ، فهذا العطر وهو غير ملموس ولا منظور نجده عند هذا الشاعر يبقي آثرا لهذا الحبيب بعد مغادرته للدار . وهذا القول يدل دلالة أكيدة علي تلك المقدرة الفائقة التي تجعل بابا طاهر يخلق من الخيال حقيقة ومن الأطيــاف صــورا حية وهذا مالا نجده عند غيره من الشعراء .

---

(١) نسيمى كزين آن كاكل آيـــــــــــو
مرا خوشتر زبـــوي ســنبل آيـــــو
چـــو شـــوگيرم خيالـــت رادر آغـــوش
سحر از بسترم بوي گل آيـــــــــو

ويوفق بابا طاهر كثيرا في البديع ومن المقطـوع بـه أن البديع فن قد يوفق فيه الشاعر أو لا يوفق .

يقول :

إن عـــشقك لا يبـــارح قلبـــي
ولم أتحدث عن هموم عـشقك إلـي شـخص
ولكـــن لهيـــب الحـــب والمحبـــة
لا يكـــون خاليـــا بـــين النـــاس [(١)]

ففي هذه الرباعية تري بابا طاهر يحسن استعمال كلمة " مهر " بمعني وجه أو شمس فتراه موفقا في هذا كل التوفيـق ، لأن الشمس لا تخفي علي الناس ولأن الحب العنيـف لا يخفـي علي الناس أيضا ولو جهد العاشق أن يخفيه .

كما يوفق بابا طاهر أيضا في ابتكارالمعاني والتـشبيهات كما يبدو من قوله :

---

(١) زدل مهـر رخ تـو رفتنـي نـــي
غم عشقت بهـركس گفتنـي نـــي
وليكـي سـوزش مهـر وصـحيت
ميان مرديـون بنهفتنـي نـــي

إن عـــــشقك يلهـــــب روحـــــي
ويجعــل مـــن جـــسدي حفنـــة للرمـــاد
ولـــو قطعـــوا غـــصن حبـــك مـــن قلبـــي
لظهرت في كل ركن منـــه آلاف الأغـصان [١]

ففي هذه الرباعية معنى مبتكر ، فهو يشبه تجدد الحب بتجدد نمو النبات بعد تقليم أغصانه وتشبيه المحبة بالأغـصان تشبيه جميل لما يقترن في الخيال بتلك الأغـصان مـن أزهـار وأطيار وتفتح وازدهارٍ وذبولٍ ، وكل هذه الصور تصور حركات العاشق تصويراً رمزياً جميلاً.

يقول :

لـــي قلـــب مفتـــون يخلـــص الـــود لـــك
وعندما أطبق جفوني تنحـدر سـيول الـدمع
وقلـــب العاشـــق مثـــل الغـــصن الرطـــب
الذي يحترق من طرف وينزف مـن الأخـر [٢]

---

(١) مـــرا عـــشقت زجـــان آذربـــر آره
زيپكـــر مـــشت خاكـــستر بـــر آره
تهـــال مهـــرت از دل گربيـــــرن
هزاران شاخ هر سـو سربـــــر آره

(٢) دلـــي دبـــرم زعـــشقت گيـــر وويـــژه
مـــژه بـــرهم زنـــم سـيلابه خيـــژه
دل عاشـــق مثـــال چـــوب تريـــــي
سري سوزه سري خونابه ريـــــژه

ففي هذه الرباعية تشبيه عجيب للغصن إذا احتــرق لأن المشاهد أن الغصن الرطب إذا احترق سال منه سائل والواقع أن هذا تشبيه نادر مبتكر .

وتبدو براعة بابا طاهر في توفيقه في الـصور الـشعرية البسيطة التي تأسر القلب ببساطتها ورقتها ، وفي التجديد فـي التشبيهات المألوفة التي يخلع عليها صوراً رائعة أخاذه .

يقول :

أيــن أنــت يــا حبيبــي الناضــر الــشباب
أيـــــن أنـــــت بعيونـــــك المكتحلـــــة
إن الأنفـــاس وصـــلت إلـــي صـــدر طـــاهر
فأين أنت يــا عزيــزي فــي وقــت المــوت[1]

ففي هذه الرباعية صورة شعرية جميلة للحبيب ، وهــي صورة تصلح لأن تكون إنسانية ، فهذا الحبيب في نضرة الصبا وله عينان مكحولتان ، والشاعر يشتاق إليه وإلي نظــرة مــن عينيه قبل أن يموت ، فهو يقول إنه كاد يموت عشقاً ومنــاه أن ينظر إلي عينى الحبيب قبل موته . وهذه صورة حيــة مــؤثرة على سذاجتها فإن للبساطة أحياناً حسناً يحار المرء في تعليله .

---

(١) نگــــار تـــازه خيـــز موكجـــائي
يچـــشمان ســـرمه ريـــز موكجـــائي
نفـــس بـــر ســـينه طـــاهر رســـيده
دم مـــــردن عزيـــــز موكجـــــائي